الرحلة العلمية في الجزائر (رحلة الخضر حسين أنموذجا)

بوراس عبدالهادي

جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر -٢-كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية والفنون

الملخص

مثّلت الرحلة مرجعا معرفيا اختلف النقاد في تحديد مرتبته العلمية؛ بين من يصنفها في المرتبة الثانية بعد المصادر بحكم اتسامها بالذاتية، وآخر يسلم لها بالسبق، كونها تتطرق إلى جوانب تغفل عنها الوثائق، غير أنك لن تجد اختلافا بينهم في قيمة أدب الرحلة في تراثنا العربي والإسلامي، لما تزخر به من مُلح، وتحويه من نزه، تختلف من نوع لآخر فما تحويه الرحلة العجائبية يختلف عن الرحلة العلمية وغيرها، ليشكل في الأخير تراثا يحتاج منا العناية والتحليل، وهو ما حاولنا تطبيقه في بحثنا هذا، الخاص برحلة الخضر حسين إلى الجزائر تقصيا لأبرز ما أثار انتباه الخضر، وما استوقفه من جهود علماء الجزائر.

الكلمات المفتاحية: الرحلة، العلمية، الجزائر، الخضر حسين

التمهيد:

تجلى أمر ربنا –سبحانه– على سائر مخلوقاته، فكانت على الناموس الذي أراد لها بعلمه وحكمته، وما الأرض إلا مخلوق خاضع لأمره مسبح بحمده، قضى له بالسعة والبسط، فنزل منزلة المخلوق من الخالق، وتباين في شأنه من سهول وأوعار.

وما كان لمخلوق أن يخرج عن أمر خالقه، فرضي آدم بما كُتب عليه من نزول إلى الأرض بعد أن جعلها له سكنا ومعاشا، فاستعمرها هو وذريته من بعده، وسرى في بطونها بين حل وترحال، يمتد فيما سخر الله له إلى أن بلغ تعداد خلقه ما لا يحسن عده، وسرى في الأرض إلى مدى لا يمكن حصره، فتباينت معارف ولد آدم بتباين بيئاته، وبرز هذا التباين في العادات والعلوم والعمران.

ومادام المخلوق تحت أمر خالقه، فإنه –سبحانه–شرّع لعباده ناموس التعارف فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١)، فاتسم الإنسان بحب الاطلاع وتأسيس العلاقات، ولما كان الإطلاع والاستكشاف سُنة من سنن الكون غير خارج عنها سخر الله لعباده وسائل يبلغ بها مآربه، فآتهم الخيل والحمير والبغال وذللها لهم ليركبوها، ويبلغوا بها مشارق الأرض ومغاربها، فباتت الرحلة متنفسا يؤدي فيه الإنسان ما كُتب عليه، ويحقق ذاته فيها سواء كانت رحلة للمنافع؛ كالتجارة والبحث عن مواطن للعيش، أو رحلة لتزكية العقول؛ كالتأمل في خلق الله، أو طلب العلم، فزاد شغف الرحالة لما رأوه فيه من مُلحة، وتجديد حتى جعلوه موطن الشرف فقالوا:

إن العــلا حدثتنــي وهي صادقــة فيمــا تحـدث: أن العز في الثقل

لو أن في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل (٢)

وغدا السفر عادة يتوارثها الناس جيلا بعد جيل، يمارسها كهواية مرة فمرة، أو يعيش بها عمره حتى تنزل منه منزلة الاسم فينعت بها، وغالبية العرب على هذا النحو حتى نعتوا بالبدو الرحل، وديوانهم شاهد على ذلك كقول عنترة بن شداد:

---

(١) سورة الحجرات، الآية:١٣.

(٢) تخليص الإبريز في تلخيص باريز، رفاعة رافع الطهطاوي، هنداوي، مصر، ص:٢٨.

أطوي في الفلا والليل معتكر وأقطع البيد والرمضاء تستعر [١]

وشهد المؤرخون «...بفتنة العرب بالرحلات إلى أرجاء جزيرتهم، وأطرافها، وإلى ما دنا وبعد من الأقطار عنها، والفتوحات العربية في صدر الإسلام دلّت في وضوح على أن العرب كانوا عارفين تماما ببلادهم وإمكانات شعوبها» [٢]، ومن الطبيعي أن لا يغفل الإسلام الذي يسعى إلى تأسيس مجتمع متعايش متثاقف عن الوسيط الوحيد لتحقيق هذه الغاية، فجاء أمر ربنا على لسان رسوله بأن ﴿...سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [٣]، ليتأملوا خلق الله وعاقبة الأمم التي خلت، لأن ديدن المسلم الفطنة الموعظة، والرحلة وسيلته لتخليص الإبريز مما تسفره له الأحداث من قيم يستفيد منها ويفيد« فليس من لزم جهة وطنه، وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسّم غمره على قطع الأقطار ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار، واستخرج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من معدنه» [٤]، ورحم الله الشافعي إذ يقول:

سَافِرْ تَجِدْ عِوَضــاً عَــمَّنْ تُفَارِقُــــهُ وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيْذَ العَيْشِ فِـي النَّصَــبِ [٥]

الأُسْدُ لَوْلاَ فِــــرَاقُ الغَــابِ مَــا افْتَرَسَتْ والسَّهمُ لَوْلَا فُــرَاقُ القَــوْسِ لَـم تُصِـبِ

إِنِي رَأَيْــتُ رُكُــودَ المــَاءِ يُفْسِــدُه إن سَاحَ طَابَ وإن لم يَجْـرِ لَـم يَطِــبِ

والشَّــمْسُ لَو وَقَفَتْ فِي الفُلْــكِ دَائِمَــة لَمَــلَّها النَّــاسُ مِــن عُجْـمٍ وَمِنْ عَرَبِ

والتِّبــرُ كــالتُّرب مُـلقى فــي أَمَاكِنــه وَالــعُوْدُ فِي أَرْضِــهِ نَوْعٌ مِـن الحَطَبِ

فــإن تَـغرّبَ هذا عَــزَّ مَطْـلَبُــهُ وإن تَــغَرَّبَ ذَاكَ عَــزَّ كالــذَّهَبِ

---

(١) تقاسيم الرحلة وبناء الذات في الشعر الجاهلي، بودالي التاج، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد ٠٩، العدد ٠٩، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، ص:٢٣٦.

(٢) أدب الرحلات عند العرب، عبد الرحمن شلش، مجلة الفيصل، العدد التاسع، ربيع الأول ١٣٩٨هـ، ص:١٢١.

(٣) سورة الروم، الآية: ٤٢.

(٤) الرحلات كمصدر للتاريخ، أحمد بهكاي، مجلة الفيصل، العدد السادس، ذو الحجة ١٣٧٩هـ، ص:٧٩.

(٥) ديوان الشافعي، الشافعي، تحقيق عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، ص:٥٤-٥٥.

فذاع صيت العرب بين الأمم لما عُرف عنهم من الضرب في أصقاع الأرض شرقها وغربها، ومن بين الرحلات المشهورة رحلة **أبي دلف بن المهلهل** إلى الهند وكشمير وأفغانستان، فكتب كتاب "عجائب البلدان"، ورحلة **المسعودي** إلى الهند وسرنديب، وعمان وسوريا وفلسطين، فسجل مشاهداته في كتاب سماه "مروج الذهب"، ورحلة ابن جبير، وابن بطوطة، وابن سلام، وأبي موسى المنجم، وسلمان السيرافي، وغيرها من الرحلات، ما شكل تراثا غنيا بالأسرار واللطائف التي تدفع الباحث إلى الترحل في مؤلفاتهم واكتناز كنهها ومكنونها، والإفادة من غثّها وسمينها.

ولما كان للمغاربة شأن في هذا المجال ارتأينا أن ندلي بدلونا فيه، فنرى منهجهم عند الظعن، ونناقش ما دونوه من ملامح، ولما كانت الجزائر سيدة المقام في نفوسنا يهمّنا شأنها، وشأن ما قيل فيها وفي أهلها، اصطفينا رحلة أحد المغاربة إليها، فاجتمع هذا وذاك في رحلة الخضر حسين إلى الجزائر، ولم يبق لنا بعد هذا إلا تساؤل عن ملامح الجزائر في عين الخضر حسين ؟

١- الرحلة العلمية:

تباينت نوايا الرجال وتعددت مشاربهم، فكان لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، يبلغ بها حرمه ويؤدي شعائره، ونسكه، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه من تجارة أو طلب علم، وباختلاف النوايا والمقاصد تختلف الوجهات والنتائج، فمن عقد النية على الحج، فبيت الله مقصده مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (١)، ومن عقدها لطلب العلم، ومجالسة العلماء – وذاك أشرف مقصد بعد بيت الله لما هو مأثور عن النبي أن من سلك طريقا يبتغي به علما سهل الله به طريقا إلى الجنة– يشد رحله إلى دور العلم، حتى ينهل من علمهم وأدبهم، وينال مرتبة بينهم وفي هذا يقول **ابن خلدون:**« الرحلة لابد منها في طلب العلم، ولِقَاءُ المشيخة مزيد من كمال في التعلم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل، تارة علما وتعليما

(١) سورة الحج، الآية:٢٧.

وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما ورسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها» [١].

وقد أوفى المغاربة هذا التقليد حقه، فأكثروا في شد الرحال إلى دور العلم في سائر أقطار العالم الإسلامي، ولا يكاد يحصى عدد هؤلاء الرحالة، فقد ذكر **المقري** في نفح الطيب «أن حصر أهل الترحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال» [٢]، ما يدل على عناية المغاربة في الاستزادة من العلم، وحرصهم على التبادل الثقافي، ولا تقتصر الرحلة العلمية على طلبة العلم وحدهم، بل تتعداها إلى العلماء أنفسهم ليروا حال المسلمين وما وصلوا إليه من علم، وينصحوا إذا لزمت النصيحة.

ورحلة الخضر حسين إلى الجزائر من بين الرحالات العلمية التي كان مقصده منها معرفة مقدار ما تبلغ إليه حالتها العلمية والأخلاقية « والحق أن هذه الرحلة جاءت وهي تحمل في طياتها قدرا كبيرا، وكبيرا جدا من عناصر الإثارة والتشويق خاصة، وأنها تستعرض الأحداث بصورة أدبية تتساوق مع طبيعة النفس البشرية في استيعاب الرواية الذاتية، أكثر من الرواية الغيرية؛ بمعنى أن الذات التي تروي تكون أقرب إلى نفس القارئ من الذات التي يروي عنها، ومن ثم كانت السيرة الذاتية فضلا عن أدب الاعترافات، هما الألصق والأعمق تأثيرا في وجدان الجمهور» [٣]، وهو ما يبدو جليا في ثنايا رحلة الخضر، لما زاده عليها بأسلوبه البلاغي ورأيه الحصيف.

٢- نبذة عن الخضر حسين :

هو محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الحسني، من أسرة شريفة يعود أصلها من الجزائر ولد بمدينة بسكرة، بالجزائر في ٢٦ رجب ١٢٩٣هـ، الموافق ١٦ من أوت سنة ١٨٧٦م، نشأ نشأة علمية دينية جعلت منه رائدا من رواد الإصلاح، وشيخا على الأزهر، من مؤلفاته: الخيال في الشعر العربي، القياس في اللغة العربية، ديوان شعر موسوم بخواطر

(١) الرحلة العلمية وأهميتها في مسيرة العالم ابن مرزوق الحفيد، الطيب بوجمعة نعيمة، ص: ١٢٢-١٢٣.

(٢) الرحلة العلمية لعلماء تلمسان إلى فاس في العصر الوسيط، فاطمة بلهواري، الحوار المتوسطي، العدد٠١، ص:٥٩.

(٣) الرحلات كمصدر للتاريخ، مجلة الفيصل، محمد بهكاي، ص:٥١.

الحياة، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، ونقض كتاب في الشعر الجاهلي، توفى –رحمه الله– في الثالث عشر من رجب سنة ١٣٧٧هـ، الموافق الثاني من فبراير سنة ١٩٥٨م.

٣- رحلة الخضر حسين إلى الجزائر:

ما إن يبلغ العالم مرتبة من العلم والورع حتى يحمل على عاتقه صلاح الأمة، ويرى فيه فرضا يعود على تاركه بالوزر، كونه راع على الناس ومسؤول عن رعيته، حاله كحال السلطان بل أشد لما في الأمر من خطر على فكر الأمة وهديها، فيكلف نفسه دعوة أهله إلى الحق، والخروج إلى عامة المسلمين للنظر في شؤونهم، وما كان الخضر حسين أن يغفل هذا الفرض لما عُرف عنه من ورع، وما كان له أن يغفل عن الجزائر لما هو معروف عنها أنها ولادة لأهل العلم، ولما كانت تعانيه من الاستدمار الفرنسي فقصد الجزائر ليكون «...على بينة من مقدار ما تبلغ إليه حالتها العلمية، وجلية من أمر أخلاق أهلها الغالبة وعاداتها العامة، فإن لسان العيان أفصح من لسان البيان»[١] ، فالخضر حسين كان يسعى إلى البيان، ولن يتأتى له ذلك إلا بالظعن إليها ومعاينتها، فكان له ذلك في الثاني عشر من نوفمبر تسع مائة وأربعة بعد الألف، متجها إلى العاصمة.

وعلى الرغم من تحديد الخضر لوجهته إلا أن هذا لم يمنعه من زيارة مناطق أخرى كانت في طريقه من شرق الجزائر، فنزل بداية بسوق أهراس، بقي فيها يوما قضاه مع أهل العلم، لقي فيه أهل سوق أهراس على دراية بالعلماء المسلمين، وفي حرص على مجالس العلم يستفيدون منها ويسألون عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ سأله أحدهم عن جواز حلق الرجل لرأسه، فكان جوابه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحلق لغير نسك، ويحتمل أن يكون ترك الحلق أخذا بالعرف، فمن جرى عرف قومه بالحلق كان الأولى في حقه العمل بمقتضاه، كما يحتمل أن يكون سنة، وهو ما فهمه **أبو الوليد الطرطوشي** [٢]، و**ابن العربي**[٣]،

---

(١) خمس رحلات إلى الجزائر ١٩٠٤ ١٩٣٢ الخضر حسين وآخرون، محمد صالح الجابري، دار السويدي، الإمارات، ط ٠١، ص:١٤.

(٢) أبو الوليد الطرطوشي فقيه مالكي(ت٥٢٠هـ)، صاحب كتاب سراج الملوك في سلوك الملوك.

(٣) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، المعروف بالقاضي أبو بكر بن العربي الإشبيلي المالكي (ت٥٤٣هـ)، من مؤلفاته قانون التأويل، أحكام القرآن، أنوار الفجر، الناسخ والمنسوخ.

وصرّحا أن حلقه بدعة، غير أن الذي يقوى في النظر أن ترك الحلق من باب العادة فلا يعد بدعة.

ليتجه بعدها قاصدا مدينة تبسة، فوجد بها خريجي الجامع الأعظم؛ أي جامع الزيتونة من أهالي الجريد[١] يُلقون دروسا بتبسة، وهو عين البيان على الوحدة والأخوة الجزائرية التونسية بأن سلموهم نشأهم يعلموهم ويلقنوهم، ليس فقرا من العلماء بل توسعا ورغبة في الوحدة الإسلامية، وشهادة بكفاءة إخواننا التونسيين، وكفى بشيخنا محمد البشير الإبراهيمي شهيدا على هذا إذ قال: «وتونس قبلة الجزائر العلمية، ومأزرها الذي تأزر إليه في النوائب، ومنارتها التي تُشرف منها على الشرق وأنواره... »[٢]، ولم تختلف تبسة عن سوق أهراس في حرص أهلها على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ سأله أحد التجار عن الزكاة في القرض إن مرّ عليه حول فكان جوابه: «أن المدين الذي لا تجب عليه الزكاة هو الذي ليس له من الملك ما يسد به خلة ما عليه من الدين، أما إذا كان مالكا لما يجعله في مقابلة ذلك الدين فلا يعد الدين مسقطا للزكاة كما في الموطأ»[٣]، ليعرج بعدها إلى مدينة عين البيضاء مدينة أهل العلم ومنزلهم كالشيخ **محمد العيد آل خليفة**، والشيخ **زياني بلقاسم، والشيخ الأخضر بوكفة**، و**الشيخ عبد القادر خياري، الشيخ سعيد زموشي**، فلقي بها **الشيخ محمد العربي بن قشوط** عالم جليل من مؤلفاته رسالة الحجج المسلمة في حكم من طلق امرأته ثلاثا في كلمة، وكتاب الإرشاد إلى سبيل الرشاد ناقش فيه أفكار ابن باديس والطيب العقبي، ولقي الشيخان المسعود بن علي، والشيخ أحمد ناجي.

وما كان لباحث عن العلم وأهله أن يعود دون زيارة قسنطينة – نسبة إلى قسطنطين الأول– منارة العلم والعلماء، ومسقط رأس شيخنا عبد الحميد بن باديس الذي بات صيته أشهر من نار على علم، مدينة لقي فيها الخضر حسين كل ملامح الحضارة الإسلامية من عمران كالجامع الكبير، والجامع الأخضر، وجامع سيدي الكتاني، وعلماء منهم **حمدان بن الونيسي** (ت١٩٢٠م) من مؤلفاته القول الحنيف في الرد على من أجاز الفتوى بالقول الضعيف،

(١) الجريد هي منطقة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية.

(٢) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط٠١، ١٩٩٧، ص:٢٧٢.

(٣) خمس رحلات إلى الجزائر، محمد صالح الجابري، ص:٣٠.

ورأى فيها إقبالا على طلب العلم فوصفه قائلا:«...ولما حان وقت الصلاة رأيت جماعة مستديرة في جانب من الجامع والناس يستبقون نحوها زمرا، فأخبرني من معي بأن للشيخ درسا في التفسير للخازن» [١]، ما يعكس اطلاع علماء الجزائر على ما كتب غيرهم من العلماء فاستفادوا منها ولقنوها لغيرهم، فالخازن من علماء بغداد صاحب كتاب "ألباب التأويل في معاني التنزيل"، كما يعكس حرص أهل الجزائر من علماء وطلبة علم على تفسير كتاب الله وفهمه، فبعد تمام درس الشيخ «...تقدم إلينا بعض الطلبة الذين سبقت لهم بنا معرفة مسترشدا عن مسائل منها: كيف يجمع بين قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٢]وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [٣]، فكان الجواب أن الله لا يؤاخذ أحدا بزلة أحد، وإنما يستحق العقوبة صاحب الذنب، إلا أن الله فرض على كل مسلم رأى منكرا أن يغيره، فإذا سكت كان عاصيا فينخرط مع صاحب الذنب في العقوبة، أحدهما بفعله، والآخر برضاه، قال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٤]، قال عمر (رضي الله عنه) إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عملوا المنكر جهارا استحقوا العقوبة» [٥].

هذا ما لاحظه الخضر حسين عن أهل قسنطينة أثناء إقامته بها، غير أنه لم يلبث طويلا، ولو زاد لزادوه بما يثلج الصدر، وهو خير برهان على الصورة الباطلة التي روجها الاستدمار الفرنسي عن جهل المجتمع الجزائري وأميته، غير أن الخضر آثر الرحيل إلى مدينة أخرى في تجربة أخرى يتأمل فيها حال أهلها وعلماءها.

فشدّ رحله إلى باتنة حيث مهبط الثورة، فكما أن الله أذن للنبي صلى الله عليه وسلم بالوحي في جبل ثور، فقد أذن للمجاهدين بإعلاء كلمة الحق على جبل الأوراس، وما كان للثورة أن تنتج عن جهالة، وإنما هي رصاصة وعي قبل أن تكون رصاصة سلاح، وهو ما وجده الخضر حسين قبل بداية الانتفاضة، مدينة عامرة بالعلماء ورجال الدين أمثال **الشيخ**

(١) خمس رحلات إلى الجزائر، محمد صالح الجابري ، ص:٣٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.
(٣) سورة فاطر، الآية:١٨.
(٤) سورة المائدة، الآية:٧٩.
(٥) خمس رحلات إلى الجزائر، محمد صالح الجابر، ص:٣٢.

أحمد البوعوني، والشيخ إبراهيم السلمي، فأشاد بهما أيما إشادة فقال:« ولكل منهما فصاحة منطق، وسجية نزاعة للأدب»[١]، وزاده عجبا طباع المتجمع الجزائري في إكرام الضيف فقال: « فلما رأونا انتفضوا قائمين على وجوههم نظرة البشر والابتهاج، وعلى تيحتهم طلاوة الأدب واللطافة فكان ذلك براعة استهلال لما ينبغي ملاحظته في ذلك المنتدى»[٢]، صورة مجسدة لقوله تعالى:﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾[٣]، فالرحمة بادية في سعة قلوبهم وإكرامهم للضيف، أما الشدة فكفى بالثورة شهيدا، ورحم الله شيخنا عبد الحميد بن باديس إذ قال:

مَنْ كَـان يَبْغي وَدَّنَـا فَعَلَى الْكَرَامَـةِ وَالرّحبْ

أوْ كَـانَ يَبْغي ذُلَّنَا فَلَهُ المَـهَانَـةُ والحَرَبْ

من النادر أن نجد في رحلة الخضر وصفا للطبيعة الجزائرية، لا من قبيل افتقارها لمحاسن خلق الله من جبال ووديان، وإنما لعدم اهتمام الخضر بالملامح الخارجية للبلاد، وذلك لسببين أولها أنها رحلته الثانية إلى الجزائر فباتت المناظر مألوفة لديه، وثانيا التزاما بهدف رحلته، ألا وهو معاينة الجمال الفكري والأخلاقي لأهل الجزائر، عدا أن ما وقع في عينه من جمال العاصمة تأبى أن يبقى حبيس النفس، فآثر أن يشارك غيره من القراء، ولعل السبب الوجيه الذي دفع الخضر إلى وصف جمال العاصمة والسكوت عن غيرها، أنه بقي متلهفا لزيارتها في رحلته الأولى كونه لم يحقق ذلك من قبل، فما إن بدت على محياه حتى قال: «فتراءت لنا مصابيح أنوارها بمنظر أنيق وأشكال متناسقة، وذلك لأن المدينة قائمة على أكمة مرتفعة، يبتدئ العمران من أعلاها ثم يمتد متدليا إلى شافة البحر...»[٤]، فتحقق للخضر مقصده من الرحلة ما إن وطأت قدماه عاصمة الجزائر حتى راح يزور علماءها الميت منهم والحي، فزار قبر **الشيخ عبد الرحمن الثعالبي،** فقيه مالكي من علماء التفسير، من مؤلفاته "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، "حقائق التوحيد"، "روضة الأنوار ونزهة الأخيار في الفقه"، "جامع الهمم في أخبار الأمم"، "جامع الأمهات في أحكام العبادات"

(١) خمس رحلات إلى الجزائر، محمد صالح الجابري ، ص:٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص:٣٣

(٣) سورة الفتح، الآية:٢٩.

(٤) خمس رحلات إلى الجزائر، محمد صالح الجابر، ص:٣٤.

"الأربعين حديثا في الوعظ" "رياض الصالحين وتحفة المتقين في التصوف"، "الذهب الإبريز في غرائب القرآن والعزيز" (ت١٤٧١م)، ولقي **الشيخ أحمد بوقندورة** إمام على مذهب أبي حنيفة، وهو ما يعكس لنا التنوع الفقهي عند علماء الجزائر توسعا في الدين ورحمة بالعباد، كما زار **الشيخ عبد الحميد بن سماية**"(ت١٩٣٣م)، عالم دين وشاعر وصحفي، من مؤلفاته: اهتزاز الأطواد والربا في مسألة تحريم الربا، وكتاب الكنز المكنون، أعجب بعلمه وورعه فقال:« ومما يدل على صلاح حال هذا الرجل، وصفاء سريرته، أنه ما جرى ذكر النبي صلى عليه وسلم على لسانه إلا ارتعد صوته وفاضت دموعه»[١]، فلم يخل مجلسهم من المسائل الفقهية كحديثهم عن جهر الإمام بالتأمين بعد الفاتحة، فاختار عبد الحميد بن سماية رواية المدنيين لترجيحها بالحديث الصحيح، أراد بذلك قوله صلى الله عليه وسلم "إذا أمن الإمام فأمنوا"، وذهب غيره إلى الرواية المصرية التي تؤول "أمن" بمعنى بلغ موضع التأمين، كقولنا أنجد إذا بلغ نجدا بدليل قوله صلى الله عليه وسلم إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين، كما لم يخل من المسائل البلاغية، فتجاذبوا مسألة "الاستخدام" أي أن يؤتى بلفظ مشترك يحمل معنيين كقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ...﴾[٢]، فالمراد من الصلاة معناها الشرعي، ثم وقع عطفا على جنب فأخذت الصلاة معناها المجازي وهو المسجد.

ليزور بعدها مجلس **الشيخ عبد القادر المجاوي** أستاذ بالثعالبية وإمام خطيب ولد بتلمسان سنة ١٨٤٨م، وتوفاه الله بقسنطينة سنة ١٩١٤م، من مؤلفاته: "إرشاد المتعلمين" كتاب في اللغة والبلاغة، وكتاب "نصيحة المريدين"، "شرح ابن هشام"، تحفة الأخيار فيما يتعلق بالكسب والاختيار" "منظومة في علم الفلك"، و"الفريدة السنية في الأعمال الجيبية"، ثم قصد دار **الشيخ محمد بن مصطفى خوجة**، إمام خطيب ومحقق له عدة مؤلفات منها: "الاكتراث لحقوق الإناث"، "إقامة البراهين العظام على نفي التعصب الديني في الإسلام"، "تنوير الأذهان في الحث على التحرز وحفظ الأبدان"، حقق كتاب "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" لعبد الرحمن الثعالبي، قال فيه الدكتور ابن شنب[٣]:

---

(١) خمس رحلات إلى الجزائر، محمد صالح الجابري ، ص:٣٥.

(٢) سورة النساء، الآية:٨٥.

(٣) محمد الهادي الحسني، غياب كتابات شيوخ وعلماء الجزائر خطة مدروسة لتغييب الشباب عن ذوي الأفكار السديدة"، جريدة الشروق، الجزائر ٢٠١٥/٠٤/٠٩.

لاح برق من يسار زاد قلبي في استعار

أودع القلب شرار ما وراه زند زاري

ذهبت روحي شعاعا عند اجتلاء الخمار

...

ما بقصدي حب بدر لا غزال وجواري

إنما قصدي وسؤلي مصطفى من خير دار

بحر علم حبر عصر فاق أدهى ذي الديار

خاتما رحلته إلى الجزائر في بيت السيد مصطفى بن الأكحل حاتم الجزائر الذي«...لا يحل بالبلد غريب، ولا سيما إن كان من أهل العلم إلا وأكرم مثواه وأحسن ضيافته»[1]، وذاك ديدن أهل الجزائر قاطبة، يتجلى فيهم قول حسان بن ثابت[2]:

وَالخالطونَ فَقيرَهُم بِغَنيِّهِم وَالمُنعمونَ عَلى الضَعيفِ المُرمِلِ

يُغشَونَ حَتّى ما تَهِرُّ كِلابُهُم لا يَسأَلونَ عَنِ السَوادِ المُقبِلِ

بيضُ الوُجوهِ كَريمَةٌ أَحسابُهُم شُمُّ الأُنوفِ مِنَ الطِرازِ الأَوَّلِ

عائدا بعدها إلى تونس بعدما رأى أنه بلغ نصاب المعاينة لعلماء الجزائر وعامة أهلها، والتعريف لمجلة السعادة العظمى، والحق أن رحلته هذه بقيت ناقصة كونها لم تتعد حدود الشرق الجزائري وغيبت كثيرا من المدن العلمية في الغرب كلتمسان مثلا، وغيرها من الجنوب الذي يعتبر منارة للعلم لدى الجزائريين حيث الزوايا ودور العلم، عدا أن هذا لا ينقص من القيمة شيئا، كونها عرضت جل ملامح الحياة العلمية للمجتمع الجزائري ولعل عذر الخضر سعة الجزائر وتباعد مدنها ونقص وسائل النقل ما يصعب عليه طيها جملة، ومعاينتها تفصيلا.

(١) خمس رحلات إلى الجزائر، محمد صالح الجابر، ص:٣٩.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق عبدا مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط٠٢، ١٩٩٤، ص:١٨٤.

الخاتمة

يعتبر أدب الرحلة كنزا من كنوز المعرفة، ومرجعا لتحليل شخصية الرحالة، وحالة البلاد التي قصدها من عمران وعلم، وعادات، لتمثل ملاحظاته مادة يقرأها الشغوف بالاستكشاف فيستفيد من معارفها، ويطرب بعجائبها، ومرجعا يستفيد منه الباحث في التحليل، وإصدار الأحكام، ومن خلال مراجعتنا لما دون الخضر حسين في رحلته توصلنا إلى نتائج تمثلت في:

١- الرحلة ناموس كوني، وشريعة إسلامية تهدف إلى تأمل عواقب الناس وأخذ العبر.

٢- تفرس العرب في الرحلة، وتضمين الشعر الجاهلي لأدبها.

٣- تنوع ملامح الرحلة بتنوع طبيعتها من علمية، إلى عجائبية، ودينية...

٤- تصنف رحلة الخضر حسين من الرحلات العلمية التي قصد من خلالها معاينة علماء الجزائر وأهلها، والترويج لمجلة السعادة العظمى.

٥- اقتصرت رحلته على مدن الشرق الجزائري (سوق أهراس، تبسة، عين البيضاء، قسنطينة...)

٦- تشابه سمات أهل الجزائر في كل مدينة، من علم، و كرم، وحرص على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٧- غزارة الجزائر بعلمائها (زياني بلقاسم بعين البيضاء، حمدان الونيسي بقسنطينة...)

٨- تنوع مؤلفات علماء الجزائر، "القول الحنيف في الرد على من أجاز الفتوى بالقول الضعيف لحمدان لونيسي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، جامع الهمم في أخبار الأمم للثعالبي...

٩- تجلي ملامح الحضارة الإسلامية في اللباس، والعمران الجامع الكبير، الجامع الأخضر...

١٠- غزارة رحلة الخضر حسين إلى الجزائر بمجالس العلم المتنوعة بين الفقه، والتفسير، والبلاغة.

١١- تباين مذاهب علماء الجزائر من مالكية، وحنفية، وشافعية، وحنبلية، ما يعكس التنوع الفقهي لدى علماء الجزائر توسعا في الدين، ورحمة بالعباد.

١٢- عناية علماء الجزائر بالتحقيق، كتحقيق مصطفى خوجة لكتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي.

١٣- بطلان صورة الجهل التي روجها الاستدمار الفرنسي عن الشعب الجزائري.

ثبت المصادر

- أدب الرحلات عند العرب، عبد الرحمن شلش، مجلة الفيصل، العدد التاسع، ربيع الأول ١٣٩٨هـ.
- الإمام محمد البشير الإبراهيمي، أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط١، ١٩٩٧.
- تخليص الإبريز في تلخيص باريز، رفاعة رافع الطهطاوي، هنداوي، مصر.
- تقاسيم الرحلة وبناء الذات في الشعر الجاهلي، بودالي التاج، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد ٠٩، العدد ٠٩، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة سيدي بلعباس.
- خمس رحلات إلى الجزائر١٩٠٤- ١٩٣٢ الخضر حسين وآخرون، محمد صالح الجابري، دار السويدي، الإمارات، ط ٠١.
- ديوان الشافعي، الشافعي، تحقيق عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة.
- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق عبدا مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط٠٢، ١٩٩٤.
- الرحلات كمصدر للتاريخ، أحمد بهكاي، مجلة الفيصل، العدد السادس، ذو الحجة ١٣٧٩هـ.
- الرحلة العلمية لعلماء تلمسان إلى فاس في العصر الوسيط، فاطمة بلهواري، الحوار المتوسطي، العدد ٠١.
- الرحلة العلمية وأهميتها في مسيرة العالم ابن مرزوق الحفيد، الطيب بوجمعة نعيمة.
- محمد الهادي الحسني، غياب كتابات شيوخ وعلماء الجزائر خطة مدروسة لتغييب الشباب عن ذوي الأفكار السديدة"، جريدة الشروق، الجزائر ٢٠١٥/٠٤/٠٩.

The scientific trip in Algeria (The Journey of Kheder Hussein as a model)

Bouras abd al hadi

Abul-Qasim Saadallah University, Algeria -2-College of Arabic Language and Literature, Oriental Languages and Arts

Abstract:

The trip represents a knowledge reference. Critics differed in determining its scientific degree between those who ranked it second after the sources by virtue of their self-worth, and others that recognized it as preceding as it touches on aspects that are neglected by the documents. Nevertheless, you will not find a difference between them in the value of the trip literature in our Arab and Islamic heritage, when It abounds in benefits, and its containment from a mysterious journey differs from one type to another. What is included in the mysterious journey differs from the scientific journey and other form of journey, to form in the end a heritage that demands our care and analysis, which is what we tried to apply in this research, concerning Khader Hussein's trip to Algeria, in order to explore what grasped Khader's attention, and what intrigued him from the efforts of Algerian scholars.

Keywords : The scientific ,journey, Algeria, Khader Hussain